

### التركيبية العقلية والنفسية للإنسان العربي

الإنسان - عموماً - مخلوق ثلاثي الأبعاد والتكوين؛ فهو روح ونفس وجسد؛ وهذه المكونات الثلاث لا تتجزأ في الكائن الحي إلا بالوفاة. فالروح هو: مصدر الحياة وسره الأزلي الذي لا يعرف الإنسان عنه أى شىء سوى أنه صادر من الله خلق الأجساد ونافخ الروح فيها لتحيا. المكون الثاني في الإنسان هو: النفس والثالث هو: الجسد. لترك الروح وشأنها للخالق الذى أبدعها وأنشأها؛ ولتتكلم عن ماهية النفس الإنسانية عموماً وعلاقتها بالجسد قبل الخوض في تحليل التركيبية النفسية للإنسان العربي. إن النفس ومركزها الدماغ؛ والأخير المسيطر على كل فعاليات الجسد النفسية والحركية والسلوكية. ويقول الكاتب صباح إبراهيم: إن النفس هي طبيعة الإنسان وانفعالاتها تجاه الشخص ذاته أو تجاه الآخرين المحيطين به فمن علامات النفس وانفعالاتها هي الفرح، الحزن، الغضب، الانفعال العصبى، الانطواء، الكرم، البخل، الحب، الغضب، الحقد، الانتقام، وغيرها من السمات النفسية للإنسان هذه الانفعالات لا تدخل للروح ولا للجسد في خلقها أو تنفيذها؛ بل هي انفعالات داخلية تنعكس على تصرف الإنسان سلباً أو إيجاباً. وهي تتأثر بالوراثة العائلية وبالتربية والبيئة التى ينشأ فيها الإنسان منذ طفولته. أما المكون الثالث للإنسان فهو الجسد الذى يتكون من الهيكل العظمى والأنسجة والعضلات والأعضاء المتخصصة كالقلب والرئتين وجهاز الهضم وغيرها؛ إضافة إلى الحواس الخمسة وأعضائها كالعين والأنف واللسان والأذن والجلد. يوجد تناغم وانسجام وترابط تام بين النفس ومركزها الدماغ بكافة أجزائه وأنسجته المتخصصة وبين أعضاء الجسد المختلفة. فالنفس الفرحة المرححة والمنفتحة تمنح صاحبها الصحة والعافية طول العمر، وتزيد من قدرته على مقاومة الأمراض؛ والنفس الحزينة الكثيرة المنطوية تجلب الأمراض النفسية والعضوية على صاحبها. إن الضغط النفسى والعصبى؛ والهموم الحياتية؛ والتوتر النفسى والعصبى والغضب المستمر تقلل وتضعف مناعة الجسم ضد الأمراض؛ حتى يصبح فريسة سهلة للميكروبات

والفيروسات والبكتيريا الضارة، لقد أثبتت أحدث الدراسات الطبية أن تفاقم الحالة النفسية سوءاً يؤدي إلى نشاط الميكروبات والفيروسات بعد فقدان المناعة الذاتية للجسم فتتسبب بإفراز سموها لتفتك بالجسد وأعضائه المختلفة؛ وتعطل عملها الطبيعي؛ فتظهر أعراض الأمراض النفسية أولاً؛ كالكآبة؛ والانطواء والتوتر العصبي؛ وبعد فترة من الزمن؛ إن لم تعالج وتزول مسبباتها؛ تتحول من أمراض نفسية إلى أمراض عضوية تفتك بصحة الجسد فتظهر أعراض جديدة لهذه الأمراض العضوية ويصاب الجسد بأمراض فتاكة مثل ارتفاع ضغط الدم؛ الذبحة الصدرية؛ السكري؛ قرحات المعدة والإثنى عشر والقولون العصبي؛ والإكزيما الجلدية وداء الصدفية، وغيرها من الكثير من الأمراض العضوية ذات المنشأ النفسى والعصبي، كما تنهار المناعة الذاتية للجسد فيحدث أن تهاجم خلايا المناعة الدفاعية الخلايا والأنسجة السليمة بالجسد وتفتك بها معتقدة أنها أجسام غريبة غازية؛ حيث تفقد القدرة على التعرف عليها وتبدأ بمهاجمتها ومعاملتها كعدو غريب، وهذا ما أطلق عليه العلماء اسم أمراض المناعة الذاتية. خلاصة القول إن الحالة النفسية للإنسان هي المسيطرة والمسئولة عن صحة الإنسان ونشاطه وسلوكه مع الآخرين وهذا ما يهمننا في المقام الأول عند تحليل التركيبة النفسية للإنسان العربي والإمكانات العقلية المرتبطة بهذه التركيبة.

والآن يحسن بنا، ويحق لنا أن نتناول النفس والعقل العربي بالدراسة والتحليل وأن نعرف العقل مرة أخرى تعريفاً لغوياً واصطلاحياً حتى يلم القارئ بمفهوم العقل بشكل عام ودلالته المعينة في هذا الكتاب كما شرحنا النفس الآن باستفاضة. لقد وردت لفظة عقل في المعجم الوسيط وبعده تصريفات منها: عاقل؛ عقال؛ عقول؛ وغيرها. ومن المعاني الواردة قولها عقل شيء أى أدرك الأشياء على حقيقتها؛ والعاقل هو الشخص المدرك. وفي معجم «علم النفس والتحليل النفسى» أورد الدكتور فرج طه أن العقل يقصد به الذكاء أو الذهن.

ويستطرد ويقول: فإن قلنا إن فلاناً له عقل ممتاز كنا نقصد بأنه على درجة عالية من الذكاء والفهم؛ وإن قلنا فلاناً ضعيف العقل؛ فإننا نقصد أن ذكاه قاصر وضعيف؛ وإن قلنا إن فلاناً مريض عقلياً؛ فإننا نقصد أنه مصاب بالجنون أو الذهان؛ ومن مشتقات كلمة العقل التي تناولتها المعاجم؛ كلمة العقلانية.

ويعرفها د. فرج طه بقوله: إنها موقف فكري وسلوكي تجاه قضايا الحياة الاجتماعية والمعرفة وقضايا العلوم التطبيقية ويتمثل في اعتبار العقل هو القيمة العليا في الحياة ومعيار كل شيء ومصدر التوجيه في الحياة؛ وإننا كأفراد يحكمنا نظام عقلي يقوم على مجموعة من

المبادئ والمسلمات والقوانين الأولية التي تتفق عليها كل العقول السليمة؛ وإن المبادئ تتميز بالسمو والارتفاع فوق الجزئيات وفوق اعتبار الزمان والمكان. لقد سبق أن أكدت أن المقصود بالعقل هو الكيفية في الأداء والنشاط الذي يبذله الفكر الإنساني نتيجة ما يتوفر له من معارف؛ ومعلومات ونتيجة ما يتكون فيه من مبادئ وقواعد تشكل في مجموعها المنظومة العقلية للفرد؛ وخلال السياق السابق تم التأكيد على أن بنية العقل وهيئته لاتأتى من فراغ بل هى متأثرة سلبيًا وإيجابيًا بما يحيط به من ثقافة وحضارة سواء على المستوى المحلى أو المستوى العالمى.

ولكى نتعرف على واقع العقل العربى وارتباطه بالطبيعة النفسية المصاحبة والمهيئة له؛ يتطلب الأمر أن نحلل ونشرح العوامل المؤثرة في الحالة النفسية وبالتالي التهيئة العقلية للإنسان العربى؛ فالعقل العربى كغيره من العقول البشرية يصدق عليه ما يصدق عليها؛ فهو يتأثر نفسيًا بما يحيط به من عوامل بيئية وثقافية وحضارية سواء على المستوى المحلى أو المستوى العالمى. وإذا تأملنا بالدراسة السلوك النفسى للناس فى المجتمع العربى؛ فسوف نجدهم يعيشون فى حالة سكونية؛ حياتهم الاجتماعية تفسخ وتحليل وطبقية جائرة؛ وحياتهم السياسية استبداد وقمع وتلاعب بالسلطة وإزهاق للحريات واعتداء على حق المواطنة والكرامة الآدمية.

فقد كف العقل عن العمل وقامت مقامه الغريزة؛ فالأمة العربية لاتقرأ ولا تكتب؛ ومجموع ما يصدره العالم العربى من كتب وما ينشره من ثقافة لا يواهى دولة أوربية واحدة هى أسبانيا؛ وأما الحياة الدينية فقد لحقها المسخ والتشويه والرياء؛ فهم الناس من الدين طقوسه وأفرغوه من محتواه وتعلقوا برماده على حساب وهجه وإشعاعه؛ فقد غاب الاجتهاد وضعفت الثقة بالنفس إزاء السلف؛ وأعدم الحاضر والمستقبل ليعيش الماضى؛ وأصبح الشارع العربى ممزقًا لخرق بالية من كل لون جمعت إلى بعضها البعض بشكل قسرى وفى عجلة فغدا الأمر مضحكًا لدرجة البكاء؛ لباس أوروى إلى جانب لباس أفغانى وسفور إلى جانب ترمت حجاب حتى اليدىن والعينين؛ وذقون حليقة إلى جانب ذقون مرسله اللهى ذات أيديولوجيا تستفز وتناور؛ وقصور مترفة جنبًا إلى جنب مع أكواخ معدمة؛ والنزيف يتواصل والثروات الوطنية تستنزف والخبرات العلمية والكفاءات الحقة تواصل نزوحها إلى الغرب هربًا من الكذب والرياء والنهب المقتنن. وفى هذا التناقض الصارخ وفى خضم هذه المأساة يعيش الناس فى صراع نفسى رهيب؛ يعيشون بلا هدف ويلهثون وراء اللاشئ؛ وأصبحت الحياة العربية حياة الضرورة أو حياة الغريزة؛ يعيش الناس فى المجتمعات العربية لأجل العيش، وأصبح الكدح ينتهى عند الإبقاء بضرورات العيش من مأكلى ومشرب؛ وأصبح الطموح المعنوى ضربًا من الخيال؛

وفي مجتمع كهذا يصبح الإنسان غير مستقر من الناحية النفسية؛ مليء بالإحباطات النفسية يعاني من الاكتئاب المزمن والذي كان كما سبق أن ذكرت يجعله يتأثر نفسياً ومعنوياً وجسائياً بالسلب؛ مما يؤثر أيضاً على صفاء ذهنه وقدرته العقلية على اتخاذ القرارات الحاسمة في حياته الخاصة والعامة.

إن الصعوبات التي تفرض على الإنسان العربي وعجزه عن تحقيق أهدافه ورغباته؛ من خلال ضغوط معرقله؛ موجهة إلى تحطيم كرامته وعزته وكبريائه؛ عوامل أدت إلى شعوره باليأس؛ لدرجة أصبح الإحباط سمة من سمات الإنسان العربي عموماً. إن طبيعة شخصية الفرد هي التي تحدد مدى حساسيته وقابليته للتأثر بمختلف الأحداث الاجتماعية والإعلامية والاقتصادية والسياسية؛ وبها يجري حوله من أحداث.

وهكذا فإن الصعوبات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية؛ والفشل والانهزامات المتكررة للجيوش العربية وفشلها في حروبها؛ وفشل السياسة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ أدت إلى تدعيم ظاهرة الإحباط في المجتمعات العربية والإسلامية.

### \* بعض عوامل إحباطات الإنسان العربي النفسية

لقد عانى الفرد العربي خلال انحطاطه وتحلّفه من عدة أزمات نفسية؛ نتيجة فشل أمته في تحقيق النمو والتقدم والرخاء؛ وذلك نتيجة الفشل السياسي والاقتصادي. وقد تعزز الشعور النفسي بالإحباط للإنسان العربي نتيجة الفشل العسكري من خلال الحروب مع إسرائيل؛ واستعمار أراضيه؛ مما دفع بعض المسؤولين العرب إلى التعاون مع أعدائهم من مواقف ضعف؛ وبالتالي إلى تقديم التنازل؛ وهو ما أدى بدوره إلى جرح كبرياء الإنسان العربي؛ مما يؤدي به في النهاية إلى الإحباط النفسي المزمن. والإحباط نوع من أنواع المسببات الرئيسية للاكتئاب النفسي ويعرف بأنه «حالة نفسية لفرد حرم من رضا مشروع؛ ناتج عن خطأ في التوقعات؛ لا يجدد الإحباط بالمنع ولا بالعائق؛ ولكن بالمعنى الذي تتخذه بعض مواقف شخص معين»: وهكذا فإن الشعور بالغبين وازدواجية المعايير في تعامل الدول القوية تجاه مختلف الأحداث هي عوامل تغذى وتفرض الإحباط، وقد كان نتيجة الإحباط؛ مجموعة من الانعكاسات النفسية؛ تتمثل أهمها في خيبة الأمل؛ والشعور بالإهانة؛ وخدش في الكرامة. وهي عوامل أثرت على معنويات الإنسان العربي وركبته في المبادرة والعمل، فكما أن النجاح يؤدي إلى تعزيز الرغبة في العمل من أجل النجاح؛ فإن الفشل يؤدي إلى فقدان الثقة بالنفس وضعف الرغبة في العمل؛ والعدول عن الأخذ بالأسباب والمبادرة؛ وهذا ما يفسر الكسل العقلي المصاب به الإنسان

العربي في كثير من الأحيان. وهذا يقودنا إلى الإبحار أكثر في بعض الأمراض التي تصيب نفسية وعقلية الإنسان العربي، والتي تحول دون تقدمه وإنسانيته ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

## ١. العقل العربي ذو بنية ميتافيزيقية

لم يستطع العقل العربي أن يتحرر من ميتافيزيقية على مر العصور؛ فهو يخلط بين الدنيوي والأخروي؛ والمادى والروحي؛ أو عالم الغيب وعالم الشهادة، وإذا كانت الطبيعة التي يحيا فيها الإنسان خاضعة لنواميس قابلة للفهم والإدراك؛ ويمكن ردها في النهاية إلى صيغ رياضية؛ فإن العقل العربي يرفض في عناد هذه الحقيقة؛ ويظل يرد قوانين الطبيعة إلى قوى غيبية؛ وهو بذلك يتنكر لواجبه في كد الذهن واحترام المنهجية السليمة في البحث وملاحظة ظواهر الطبيعة بحياد وأمانة وفهم آلية عملها ومن ثمة إدراك قوانينها وهذا مايقود حتماً إلى الانتفاع بذلك الفهم في اختراع ما ييسر حياتنا ويقويننا على جبروت الطبيعة؛ وبذلك قواها لصالحنا.

حقاً إن الله خلق الكون وهو لم يخلقه سدى ولا تركه للصدفة العمياء بل أسلمه إلى قوانين صارمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهو بذلك يشعرنا أن هذا الكون فقد بنى بإحكام مقنن بإتقان؛ وهذا ما نجد في نصوص القرآن الكريم؛ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ﴾؛ أو قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُجْسَبَانِ ۝﴾. إلخ. غير أن العقل العربي لا يتحرر من سلطة النص؛ فهو ينظر إلى الطبيعة وإلى ظواهرها المطابقتها مع النصوص القرآنية؛ اطمئنانا على سلامة النص وصدق مضمونه؛ وبالطبع فإن هذه الطريقة في الفكر ليس بالفكر العلمي ولا بالتفكير الحر؛ إنما هو استمرار لتفكير العصور الوسطى؛ وإصرار على تعويم العقل في أجواء الميتافيزيقا؛ وهي حلقة مفرغة وتجعل خط سير التاريخ بالنسبة إلينا خطأ دائرياً مغلقاً ينتهي حيث يبدأ.

ومما زاد الطين بلة ظهور فئة من الكُتَّاب متخصصة فيما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن تكتب الكتب وتلقى المحاضرات وتعقد الندوات وتقارن بين نظريات العلم ونصوص القرآن؛ وتؤكد مطابقة تلك الاكتشافات لآيات القرآن؛ وهكذا نجد عند هؤلاء الباحثين يقيناً أن القرآن يحتوي على نظرية النسبية ونظرية الكم؛ وعلم الذرة وعلم الزلازل والبراكين؛ والكيمياء والبيولوجيا والفلك؛ إلخ.. ومما يؤسف له أعمق الأسف أن هؤلاء الباحثين يسمون ما يقومون به علماً محضاً وفكراً علمياً رشيداً ولكن لا يجيب هؤلاء العلماء عن سؤال مهم ماذا أضافت إلينا هذه العلوم الجديدة (علوم الإعجاز) إلينا؟ ولن نجيب على هذه الأسئلة لأنها تحصيل حاصل، وهذا ما يؤكد زيف هذا النوع من التفكير وعرقلته للفكر العلمي الصحيح

وإصراره على تعطيل العقل وشله، وقد أصبغ العقل الميتافيزيقي خاصيته هذه على الماضي والحاضر ودمج العقل الميتافيزيقي بين كلام الله وكلام المفسرين من البشر، فتقدس كلاهما وتقدس الماضي، وأدى هذا إلى تكون سياج غيبي ضرب حول العقل والوجدان العربيين، فحال دون التجديد والخلق والإبداع، وجعلنا في النهاية أمة الأقوال لا أمة الأفعال، وأصبحت السمة الظاهرة للإنسان العربي هو أنه إنسان يعيش بعقله ونفسه في الماضي أغلب أوقات حياته وليس في الحاضر والمستقبل، بل أصبح مقلدًا غير مبدع.

وقد انتبه الحكام العرب المستبدون إلى خاصية العقل العربي هذه، فوظفوها لصالحهم. فالحاكم هو خليفة الله وظله في الأرض. ووجه الخطر في هذا هو الدمج بين المظنون الديني والسياسي، فاختلط الحابل بالنابل وأصبحنا لا نفرق بين ما هو ديني وما هو علمي وما هو سياسي والفصل بينهم هو البداية الصحيحة والمنطق السليم.

## ٢. العقل العربي ذو بنية فراغية

يجب أن نلفت الانتباه إلى أن العقل ليس شيئًا ثابتًا جاهزًا للوهلة الأولى؛ بل إن العقل متطور؛ وهو يركز على إنجازات عقول تاريخية؛ وهذا يقودنا حتمًا إلى القول بتاريخية العقل والشئ الثابت في العقل الإنساني هو تلك البديهيات التي تقوم عليها العلوم والرياضيات كالكل أكبر من الجزء؛ وهي مفاهيم ثابتة في العقل الإنساني على اختلاف الزمان والمكان؛ بعيدة عن التحريف والتبديل؛ واحدة عن كل إنسان مهما كان لونه ولسانه وجنسه.

أما القول بتاريخية العقل فهو أمر لا بد منه؛ ويكفي إثباتًا لذلك ضرب هذا المثل من تاريخ العلم ذاته؛ فإن آيشتين العالم الشهير بعقله الفذ وتفكيره العلمي، قد أنهى القول بنسبية الزمان والمكان في نظرية النسبية العامة؛ وإلى القول بتحول المادة إلى طاقة في نسبيته الخاصة؛ وهي مفاهيم علمية جديدة خلاقة وثرية.

إن عقل هذا العالم الفذ ما كان ليصل إلى هذه الأفكار العلمية الجديدة والتي تعتبر من مسلمات العلم الحديث لولا الاستنارة بتجارب جاليليو ونيوتن في تطورها التاريخ من عصر ما بعد النهضة إلى نهاية القرن التاسع عشر.

وهكذا فالعقل العربي هو عقل ذو بنية متصلة ينظر إلى حقائق الطبيعة، ويتعامل مع معطيات الحياة والواقع وفق هذا المنظور المتطور المستند إلى إنجازات العقول السابقة؛ أما العقل العربي فهو عقل أشبه بمجموعة من الجزر لا أثر للتاريخية فيه؛ مفاهيم حديثة مع خليط من المفاهيم

القديمية الدينية واللاعلمية والمتناقضة والعجائية والأسطورية؛ وكأن هذا العقل تسرنت مفاهيمه فتحولت إلى مفاهيم سرطانية تنهش بعضها البعض؛ وهذا يقود إلى الاستنتاج بعدم منهجية العقل العربي وزيف معظم مفاهيمه؛ وقد انتهى هذا كله إلى الفقر الفكري؛ فلم نصف جديدًا إلى العلم؛ وفي تاريخنا العلمى من الإنجازات الحضارية والاكتشافات العلمية ما كان ينعنا إلى وصل هذه الحلقة بإنجازاتنا نحن؛ لرأب الصدع وملأ هذا الفراغ الفكري؛ ووصل النقاط ببعضها البعض ليتشكل الخط ويسير التاريخ ممتدًا نحو الأفق وفق خط مستقيم؛ بدلًا من أن يلف حول نفسه وليعود إلى المنطلق وفق دائرة. تجدر الإشارة إلى أن العقل الإسلامى في عصره الزاهر وبالرغم من العراقيل الدينية كسلطة الفقهاء وهيمنة فكر النقل النصي المترمت، وتزييف المتصوفة، وبالرغم من العوائق السياسية المتمثلة في قهر الفكر وإلجام روح الإبداع والابتكار بتعاون وثيق بين الحاكم والفقير وفق قاعدة تقسيم الربح وتبادل المنافع، أقول رغم كل هذه العراقيل، فقد أضاف العقل المسلم إضافات رائعة إلى العقل الإنسانى ككل ولم يكتف باستهلاك ثقافة الهند أو الفرس أو الروم واليونان، ولنا في إنجازات ابن الهيثم والبيروني وابن سينا والرازي والخوارزمي والجاحظ والتوحيدى وابن رشد وابن خلدون، خير دليل على صحة ما نذهب إليه من رأي، غير أن مبادرة وصل هذه المحطات الحضارية بعضها ببعض قد انتقلت إلى الغربيين بدلنا، وقد أخذ زمام المبادرة كوبرنيكوس، كبلر، جاليليو، نيوتن، بيكون، فولتير وغيرهم. أما نحن فقد انكفأنا على أنفسنا وتحولنا إلى كائنات غير مفكرة وغير منتجة تعيش على استهلاك أفكار الغير، مغمضين أعيننا عن نور شمس المعرفة، حارمة خلايانا من التجدد في رحاب الطبيعة والزمان.

### ٣ - العقل العربى عقل متناقض

إن العقل العربى يتميز بالتناقض وهدم نفسه بنفسه من خلال إثبات الفكرة ونفيها في ذات الوقت بشكل يدعو إلى العجب والدهشة، بل إنه ليرفض أحيانًا الحقيقة حتى البديهيات ويقبل بالخرافات ناهيك عن حقائق العلم ووقائع التاريخ، حتى أنه يوجد بعض من كتآبنا الأجلء تحدثوا ذات مرة محللين أسباب حدوث الزلازل وبعض الفيضانات في الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا وبعض البلاد الأخرى الغربية بأنه عقوبة إلهية جزاء عادلاً لعلمانيتهما وتفسيخها وتحللها الأخلاقى، وماذا سيكون رد هؤلاء الكتآب العظام لو ذكرناهم بتحللنا نحن وطبقيتنا الجائرة وميوعتنا الأخلاقية، ألا نستحق زلازل عديدة عقوبة لنا؟

إن ميزة التناقض هذه قد جعلت العقل العربي يؤمن بالفكرة وينقيضها في الوقت ذاته، فهو يؤمن بفكرة علمية ثبتت صحتها وقامت الأدلة العقلية أو التجريبية تؤكد سلامتها ثم ينقيضها بفكرة سحرية أو أسطورية لا معقولة تهدم العقل من أساسه وتنقض أسسه وركائزه. والمحزن أننا - كثيرًا - ما نستمع إلى الكثير من علمائنا الأفاضل في محاضراتهم ومقالاتهم ومؤلفاتهم يتحدثون في بدايات حياتهم الفكرية والعلمية عن فائدة التعقل ويشيدون بالفكر العلمي، ويمدحون التقدم العلمي الحاصل في الغرب، ويؤكدون أن ذلك ثمرة المرحلة الوضعية التي جنتها أوروبا ناضجة وسهلة الهضم؛ جزاء العقلانية والممارسة العلمية الواعية؛ ثم ينقلب هؤلاء العلماء والمفكرون في نهاية عمرهم دراويش أو متصوفين؛ ينحو باللائمة على أوروبا؛ وينددون بهاديتها الصارخة؛ ويتحمسون للروحانيات؛ ويؤثرون روحانيتنا على ماديتهم؛ ويحمدون الله أن عصمت من هذا المد المادى الصارخ؛ ولا تفسر لهذا الردة في أراذل العمر التي تشبه توبة الفنانين والفنانات إلا التسليم بأن ذلك مرده إلى الخوف اللاشعوري من الموت وعالمه الجديد المحجوب عن أبصارنا؛ البعيد عن مداركنا؛ وفي وعينا ولاوعينا ترسيبات لأشكال العذاب والرعب والقمع والعقاب المتجلية في النصوص الدينية؛ والتي تصيب الإنسان في آخر عمره بالنكوص والتردد والقلق والخوف الغريزي، ويكون المخرج من هذا المأزق الوجودي والمعادل الموضوعي هو الردة والتنكر للمسار الفكرى الشخصى ضماناً للإفلات من العقاب والعذاب الإلهي.

#### ٤ - الضمور الجزئى للعقل العربى

التحول بتعطيل العقل هو أمر لا مفر منه؛ لقد ضمّر العقل العربى فى الأغلب بتعطيل نشاطيه الرئيسيين المتمثلين فى التحليل والتركيب؛ واكتفى الإنسان العربى عندنا بالتقليد والتسليم حيناً واللامبالاة أحياناً أخرى. وإذا تأملنا فى سبب ذلك السلوك العقلى المتعطل؛ فسوف نجد أن هيمنة الاتجاه الدينى التاريخى أو ما يسمى بالاتجاه الغزالى على حساب الرشدية (نسبة لأبى حامد الغزالى وابن رشد). لقد صارت هذه العبارات «من تمنطق فقد ترندق» و«إلجام العوام عن علم الكلام» أقول لقد صارت هذه العبارات أشبه بمسلمات أو قوانين جاليليو فى الحركة؛ يسمعه الواحد منا فتنزل برداً وسلاماً على قلبه، ويتولى الشكل المقنع لهذه العبارات مهمته فى شكل العقل وإبهار الذات وتحذير الفكر.

وإذا كان العقل العربى فى حالة تعطل وبشكل تام، وقصور عن أداء مهامه. ففى تاريخنا سوابق عديدة من ذلك، إذ كلما هبت مجموعة من المفكرين الأحرار، تفكر فى الحرية وإبداع.

هب التيار المحافظ التقليدي متمثلاً في فقهاء السلطة وبطانة السلطان وحاشيته لإلجام الفكر الحر وقمعه حفاظاً على المال أو السلطة، وما أكثر من ظلموا في التاريخ العربي الإسلامي من جراء ذلك الظلم والجهل البين مثل: ابن عربي وابن حزم والمعري وابن الراوندي والتوحيدي، حتى أن آخر ثلاثة قد سموا في التاريخ الإسلامي بزنادقة الإسلام. ولناخذ أبي حيان التوحيدي كمثال، فكل من عرف وقرأ للتوحيدي ونزعتة الإنسانية وأخلاقه المثالية كما تجلت في روائع كتبه «الإمتاع والمؤانسة» و«المقابسات» و«مثالب الوزيرية» وهو صاحب الكلمات المؤثرة الجامعة والتي تلخص مأساة الإنسان منذ بدء التاريخ حتى الآن. فكيف يُرمى مفكر في قدر هذا الرجل بهذه التهمة الجاهزة لأي مفكر حر وهي الإلحاد والزندقة والكفر.

ومن مآسي العصر الحديث ما لا يحصى ولا يعد من النكبات التي تؤكد شلل العقل واستمرار فلسفة الزيف والجهل، فمثلاً «توفيق الحكيم» واجه معارضة شديدة ممثلة في الشيخ الشعراوي يوم شرع في كتابة مقالاته المعنونة «حديث مع الله» واضطر تحت وطأة التنديد أن يغيره إلى «حديث إلى الله». كما أن الشيخ الغزالي مثلاً قال عن نجيب محفوظ إنه كاتب «التنين الاجتماعي» وعن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أنه «أعمى البصر والبصيرة»، واتهم زكي نجيب محمود بالكفر، وهكذا محمد أركون وفؤاد زكريا، وندد بكتاب «دليل المسلم الخزين»: «لحسين أحمد أمين»، وكتاب القصص الفني في القرآن» لمحمد خلف الله، وقتل حسين مروة صاحب «النزعات المادية في الإسلام»، كما قتل فرج فودة، وحكمت المحكمة المصرية على المرحوم الكاتب دكتور نصر حامد أبو زيد بتطبيق زوجته لأنه مرتد أو مارق لولا أن لاذ بجامعة «ليرن» في هولندا هرباً من القمع والتدخل في الشؤون الشخصية والحيلولة بين المرء وما يعتقد.

إن كل هذه الأمثلة تؤكد استمرار المأساة التي أوضحها في هذا الكتاب، هذه المأساة التي بدأت منذ العصر الأموي مروراً بالعباسي وعصر الضعف وانتهاء بالعصر الحديث الذي امتلأ بالقنوات الفضائية المشبوهة الممولة خليجياً، والتي تتولى عملية التخدير الفكري والتغيب وإلجام الفكر خاصة وأن قنواتها في كل بيت عربي، يشاهدها الملايين ممن لا يحسنون تفكيراً حراً ولا استدلالاً عقلياً، وفي لا وعيهم جميعاً ترسبات للخوف إلى درجة الرعب وكبت لا تقوى على حمله أي نفس بشرية. إن هذه البنية العقلية للإنسان العربي تجعل المجتمع العربي من محيطه إلى خليجه في حالة كمون وتعطل، لم يقو الزمن على خلدخلته وتنشيطه ليتفاعل داخلياً ليشكل عوالم جديدة باعثة للنور الفكري العقلي الذي نأمل في حدوثه من خلال حملة التنوير والنهضة التي نحاول أن نقوم بها كمفكرين وباحثين ننتمي لهذا المجتمع.